النحو العربي نحو مقاربة معرفية تكاملية

د. طريق زينون
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين فاس، مكناس- المغرب

يندرج هذا البحث ضمن أعمال المؤتمر الدولي الأول

"نحو بناء منهاج جامع لعلوم الوحي وعلوم الإنسان، الحلقة الأولى: الأسس الإبستيمولوجية"

والذي نضم يومي 15 - 14جمادى الأولى 1444هـ /الموافق لـ 10 - 09دجنبر2022م

برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة -المغرب

أَكَادِيمِيَّةُ الدِّرَاسَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالتَّرْبَوِيَّةِ

Academy of Intellectual and
Educational Studies

الآراء الواردة في البحث
هي للكاتب، ولاتعبر
بالضرورة عن الموقع
أو الأكاديمية

ملخص البحث

تأتي هذه الورقة العلمية لتقريب طرق تلمس المعرفة النحوية وإدراك بنائها النظري، باعتبار النحو خطابا واصفا للغة العربية واجتهادا علميا منظما، تحكمه أصول معرفية وضوابط منهجية، تتصل بالنظام الاستدلالي الذي تبلور في محيط اعتقادي خاص، وتشكل في كنف النصوص؛ سواء أكانت شرعية أم وضعية، حيث كانت هي المنطلق والأصل.

إن المقاربة المعرفية ستمكن من فهم المستويات الخارجية لتشكل الخطاب النحوي الذي توافرت له جملة من الشروط الثقافية والاجتماعية والحضارية، والتي تعكس حقيقة الحالة العقلية التي وصلت إليها الأمة العربية الإسلامية، وستسعف هذه المقاربة في فهم المستويات الداخلية التي تهتم بشكل تنظيم النحو وتوزيعه على الأبواب النحوية أيضا. ومن هذا وذاك تتأسس تلك العلاقة الجدلية بين الداخل والخارج التي تسهم في الوعي بكيفيات تشكل الخطابات العلمية في الثقافة العربية الإسلامية.

إن التوسل بالآلية المعرفية التكاملية لمقاربة الخطاب النحوي ستكشف عن ثوابته وسماته ومبادئه العقلية والنصية الموجهة لعمل النحاة، وهو ما سنبرزه من خلال بيان بعض تقاطعات النظر النحوي عند السيوطي والنظر الأصولي؛ فقد كان السيوطي متأثرا بمنهجية أصول الفقه؛ خصوصا في مؤلفه "الأشباه والنظائر في النحو".

1. المنظور الإبستمولوجي للنحو العربي

أ. في أصول النظرية التكاملية

تقتضي المقاربة التكاملية النظر في مضامين التراث اللغوي والنحوي على وجه الخصوص وقضاياه، لتبين طرق بناء المعرفة وصورها، وإدراك الأصول التي قام عليها هذا التراث، والنظر في بنيته والآليات المنتجة له كذلك، ولن يتأتى هذا إلا بمساءلة منطق النص النحوي الداخلي، يقول عبد الرحمان بودرع في هذا السياق: "ولا يتوصل إلى فهم الخطاب اللغوي العربي عامة، والخطاب النحوي خاصة، إلا بدراسة مقالات النحويين التي تنطلق من البحث عن أسئلتهم المعرفية المغيبة خلف مقالاتهم. ويدخل في مقالات النحويين مصنفاتهم وأعاريبهم وتأويلاتهم التي يقدمونها بين يدي فهمهم للشواهد اللغوية"[1].

---

[1] بودرع عبد الرحمن، الخطاب النحوي ومنهج المعرفة، مجلة التأويل، الرابطة المحمدية للعلماء، العدد 2، يونيو 2015، ص 181.

إن التعامل مع التراث العربي عموما؛ والذي يتشكل من مجموعة من المضامين والقيم والوسائل الخطابية والمواقف السلوكية؛ يقتضي استحضار جملة من المبادئ النظرية والعملية. وقد بين طه عبد الرحمان أصول النظرية التكاملية التي تتحدد معالمها في:

أصل التداول: "ومقتضى التداول أن الشعب الثقافية للتراث، وهي العقيدة واللغة والمعرفة لا تستقيم على أصول التراث الإسلامي العربي حتى يتحقق العمل بها وفق ما ينفع الغير، فضلا عن نفع الذات، ووفق ما ينفع الآجل، فضلا عن نفع العاجل"[1]، فقيمة التراث تتجلى في منفعته، والعمل بمقتضياته الموافقة لرسالة الشهود الحضاري، ولهذا فقد تكونت لدى علماء العربية مسالك منهجية وتصورية رأوا من خلالها العالم والوجود والكون والحياة، يصعب الانفكاك منها أو معاكستها.

أصل التداخل: ومؤداه "أن المعارف التي تضمنها التراث، على اختلاف مجالاتها وأبوابها، تشترك في الآليات التي أنشئت ونقلت بها مضامينها، فيكون الاشتغال بهذه الآليات التي أنتجت وبلغت هذه المضامين المعرفية، مؤديا إلى العناية بكلية التراث الإسلامي العربي وبجميع دوائره المختلفة من غير استبعاد، لا حذفا ولا استثناء"[2]. فالمعارف في التراث الإسلامي تتعاضد وتتساند، ويخدم بعضها البعض، وهكذا فإدراك منطق النحو العربي وبنائه النظري يحتم ضرورة تمثل مباحثه المتشعبة الضاربة في حقول معرفية متنوعة واستيعابها، لهذا يجب الوعي بمبدأ التفاعل بين شعب التراث وفروعه؛ فعلومه يخدم بعضها بعضا وتتفاعل فيما بينها للكشف عن الحقائق العلمية وبناء المعارف.

أصل التقريب: فمقتضاه "أن المنقول لا يمكن أن يؤتي ثماره، لا استشكالا ولا استدلالا، حتى يتم وصفه بالمقتضيات التداولية للتراث، عقيدة ولغة ومعرفة؛ ولا وصل له بهذه المقتضيات حتى يخرج عن أوصافه المخالفة، ويدخل في أوصف موافقة"[3]. ومن خلال هذا الفهم فإن الرؤية التكاملية تنظر في التراث بوصفه كلا متناسقا؛ لا يمكن الانتقاص من جزء من أجزائه، أو التقليل من قيمته ومن وظيفته، حتى لو سلمنا بوجود ثغرات أو هفوات نظرية ومنهجية في هذه الشعبة أو تلك، ولا يمكن الوصول إلى حقائقه وأسراره إلا بتوظيف آلياته المأصولة فيه، لا المنقولة.

ب. جدلية الداخل والخارج في المعرفة النحوية

وبناء على ذلك؛ فإن فقه الخطاب النحوي ومضامينه والمقدمات المتحكمة فيه وآليات إنتاجه، هو الكفيل بأن يقربنا من الأسس النظرية والأصول المعرفية التي انطلق منها النحويون. وقراءة هذه المقالات

---

2. طه عبد الرحمان، سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت-لبنان، ط1، 2015، ص 62.
3. طه عبد الرحمان، سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد، ص 64.
4. المرجع نفسه، ص 67.

والأقوال بوصفها نشاطا ذهنيا واجتهادا علميا منظما، ستساعد بلا شك في تبين طرق النظر، وكيفية التعامل مع قضايا اللغة العربية، وكيفية إعمال العقل؛ لاستنباط تلك الأسس الكلية والأصول العامة التي أنتجت وأفرزت فكرهم النحوي، كل ذلك من خلال رؤية نسقية تحتكم إلى المنطق الداخلي للنصوص وإلى الرؤية التكاملية المؤطرة للفكر النحوي عامة.

وأعتقد أن الاشتغال على منطق النصوص النحوية الداخلي، ثم عرض آليات اشتغالها على العلوم المجاورة ومقارنتها بها ونقدها، كفيل بإبراز طبيعة النظر النحوي وأصول نظره المعرفية؛ لأنه لا يمكن فهم الخطاب النحوي إلا في إطار النظر في المنظومة المعرفية النصية عامة وعرضه عليها. لقد تداخلت المسائل الفقهية والنحوية والكلامية والأصولية بشكل لافت؛ لأنها تنتمي لنفس النموذج المعرفي. وعبر التاريخ يهمين حقل معرفي معين على الحقول الأخرى، فيفرض آلياته الاستدلالية وأصوله النظرية عليها، إن "التراث العربي الإسلامي نسق فكري واحد متماسك منسجمة أطرافه وأجزاؤه، وكل تأليف أو تصنيف أو قول علمي أو فتوى لغوية أو شرعية، إنما تستمد من علوم متعددة وفروع متنوعة، والنحو أحد هذه الفروع، ولم يكن سيبويه وهو يضع أصول النظر النحوي بمعزل عن أنظار الفقهاء والقراء والمحدثين والمتكلمين. وهذا الربط هو الدليل المرشد إلى الكشف عن الدلالات المعرفية في سياق تاريخ العلم والمعرفة عند العرب"[1].

لكن هذا العرض لا يجب أن يصل إلى درجة إلغاء الحدود الفاصلة بين الصناعات، وانتهاك خصوصيات كل علم وطبيعته، فكل علم له أدواته المعرفية ومساطره الإجرائية والبنائية، بل يجب أن يتركز مجال اهتمامنا على الوعي بحدود كل صناعة، فلا يمكن القول إن توظيف العلماء لآليات علم من العلوم يكون بنفس البناء والطريقة ولنفس الأغراض في تخصصاتهم الأصلية.

وفي ضوء ذلك تقتضي مقاربة الخطاب النحوي استحضار جملة من المفاهيم النظرية المؤطرة والحاضنة له:

- مفهوم التداخل أو التكامل المعرفي بين الحقول المعرفية؛
- مفهوم الآليات والمساطر الاستدلالية التي تحكمت في بناء المعرفة اللغوية؛
- مفهوم النظام المعرفي الذي يكشف اللحظات الحاسمة في تشكل العلوم والمعارف العلمية[2].

إن استثمار مفهوم التقاطع المعرفي، سيكشف لا محالة عن الأصول المعرفية للنظرية النحوية التي تنبثق من حقول معرفية متعددة، وتتبلور مفاهيمها ومناهجها ومواقفها من تلك الحقول. فقد تستمد

---

1. بودرع عبد الرحمان، الخطاب النحوي ومنهج المعرفة، ص 191- 192.
1. إسماعيلي علوي حافظ وامحمد الملاخ، قضايا ابستمولوجية في اللسانيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2009، ص 34، بتصرف

النظرية مفاهيمها وتستنبت من إطار خارج عنها، ومن أمثلة تقاطع النحو العربي وعلم أصول الفقه، ما فعله السيوطي في كتابه الاقتراح في علم أصول النحو وفي مصنفه الأشباه والنظائر في النحو، فقد نقل جزءا من القواعد والمبادئ الفقهية إلى مجال النظر النحوي، يقول السيوطي في هذا الصدد: "واعلم أن السبب الحامل لي على تأليف ذلك الكتاب الأول أني قصدت أن أسلك بالعربية سبيل الفقه فيما صنفه المتأخرون فيه وألفوه من كتب الأشباه والنظائر"[1].

ولعل ذلك القول يسفر عن أصالة النموذج المعرفي الإسلامي في التصنيف والتبويب وجمع المادة وتحليلها، ويدفع هذا كله تلك الاتهامات الموجهة له بخصوص التأثر بالثقافات الأجنبية وآلياتها المعرفية، فالنموذج الفقهي -في عصر السيوطي- والذي انتقلت بعض معالمه المنهجية إلى باقي الفنون يؤكد على تفرد هذا النموذج وتميزه. ومن هذا المنطلق لا يمكن أن ننكر أن علم النحو قد نشأ في محيط اعتقادي ديني وثقافي له أدوات خاصة في التفكير والتحليل "إن النحو العربي نشأ لفهم القرآن الكريم وتلقين اللغة العربية لغير الناطقين بها، من الأقوام الذين دخلوا الإسلام، وما واكب دخولهم من ظهور اضطراب في تعليم وتعلم اللغة العربية، وما رافق ذلك من مشاكل تتعلق باللحن أي الأخطاء على مستوى التركيب (تآلف الكلمات) أو الحركات الإعرابية أو العلامات الصرفية) مما أثار مشكلة بيداغوجية ودينية خاصة فيما يتعلق باللحن في قراءة القرآن الكريم، وتحريف المعنى)"[2].

ولا شك أن النظر النحوي له منطلقات فكرية تصورية، "يتحكم فيها نزول القرآن الكريم باللسان العربي"[3]. وتتحدد هذه المنطلقات في ثلاث قضايا أساسية كما أوضحها محمد عبد الفتاح الخطيب:

- ✓ **الفهم والإفهام**: حيث تأسست العلوم العربية والإسلامية من أجل فهم الوحي والخطاب الرباني، ووضعت من أجل ذلك القواعد والأسس والمسالك التي تضمن الفهم الصحيح للقرآن الكريم، وتحفظه من التأويلات الفاسدة التي تطمس هويته.
- ✓ **نظام اللغة**: الذي يكشف أن للغة أسرارا وخصائص، وأن وراء قواعدها حِكَما جعلت منها رسالة بيانية مكتملة، تجب العناية بها إلى درجة التقديس؛ لأن الاشتغال بالعربية يعد من صميم الدين.

---

2. السيوطي جلال الدين، الأشباه والنظائر في النحو، وضع حواشيه غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2011، ج 1، ص 9.
3. عشير عبد السلام، تطور التفكير اللغوي، من النحو إلى اللسانيات إلى التواصل، افريقيا الشرق، ط1، 2020، ص16.
4. الخطيب محمد عبد الفتاح، ضوابط الفكر النحوي، دراسة تحليلية للأسس الكلية التي بنى عليها النحاة آراءهم، دار البصائر، القاهرة، ط1، 2007، ج1، ص 156.

- ✓ **القاعدة والاستعمال**: إن الاهتمام بتحليل الخطاب البياني دفع علماء العربية إلى التمييز بين مستوى اللسان بوصفه نظاما من القواعد المجردة القائمة على جملة من العلاقات المنطقية، ومستوى الاستعمال بوصفه إنجازا فرديا يتأثر بسياق الكلام ومقاصد المتكلم وأغراضه. وهكذا نجد تأثر النحو العربي واضحا بأصول المجال التداولي العربي الإسلامي، فكان علما آليا مأصولا وشرعيا وعمليا ونظرية في تحليل الخطاب في الوقت نفسه[1].

ولضمان قراءة معرفية واعية لعلوم العربية عامة، وللنحو خاصة "لا ينبغي الاكتفاء بالبحث في المياسم المعرفية المشتركة بينها فحسب، بل من المفروض الكشف عما يميزها في طرائق الاستدلال، وعلى تشقيق الأقوال في كل علم والوقوف على جزئياته وتدقيق النظر فيه"[2]. وكل هذا سيساعد في الإمساك بالآليات المنتجة للمضامين اللغوية وأقاويلها، فقد تعامل علماء النحو واللغة؛ كما أشرت سلفا مع اللغة بالنظر في قواعدها الداخلية ونسقها الخاص؛ فاللغة في نظرهم بنى تركيبية متواضع عليها، فحرصوا من ثم على السماع من أفواه العرب الفصحاء، وعلى استقراء النص القرآني والنصوص العربية الفصيحة؛ لاستنباط الأصول والقوانين الأساسية، ومن ثم القياس عليها، فكان النحو معقولا ومنسلخا من منقول، ومن ثم كان النص يمد النحوي بالقاعدة المنظمة لعملية الكلام وفهمه.

ومن هذا المنطلق نحا علماء العربية نحو المنهجية التكاملية في الاستدلال والبناء، التي تتأسس على النظر العقلي في المعطيات والحالات اللغوية الواقعية المشاهدة؛ فتجد الفكر النحوي العربي قد جمع بين الاستدلال اللغوي القائم على النقل واستقراء النصوص، والاستدلال العقلي القائم على النظر العقلي في المنقول المشاهد، لإيجاد العلاقات بين الظواهر اللغوية وتفسيرها؛ فنهض الفكر النحوي على القياس الاستقرائي والقياس الاستنباطي والتعليل والتأويل والرد إلى الأصل، فاستطاع الجمع بين الرؤية الاستقرائية الحسية والرؤية العقلانية التجريدية؛ فهو في حقيقته تصنيف منهجي وتنظيم علمي، تستدعي خطواته بعضها البعض في تكامل تام، وهو ما يذهب إليه السيوطي موردا كلاما لابن جني الذي يقول فيه: "من قال إن اللغة لا تعرف إلا نقلا فقد أخطأ؛ فإنها تعلم بالقرائن أيضا"[3]؛ أي تعرف بإعمال العقل والقياس أيضا. فأبرمت الأحكام النحوية من خلال تجريد الأصول والتفريع عليها، وجمع الأشباه والنظائر، وبناء المسائل على بعضها، وبيان الضوابط والاستثناءات، وما يجمع الظواهر اللغوية وما يفرقها، فأصبح النحو معقولا من منقول، وقياسا يتبع، وهو الأمر الذي يثبت أن المنهج النقلي في البحث

---

1. ينظر المرجع نفسه، مبحث منطلقات الفكر النحوي، ص 155
2. إسماعيلي علوي حافظ والملاخ امحمد، قضايا ابستمولوجية في اللسانيات، ص 33، بتصرف.
1. السيوطي جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وتعليق محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد جاد المولى بك وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية صيدا بيروت، ط2011، ج1، ص 57.

اللغوي يفقد قيمته المعرفية؛ ما لم يعضد بالمنهج العقلي، ومن ثم فالمنهج النحوي في شموليته لم يكن نقليا محضا، ولم يكن عقليا محضا أيضا، فقد شكل النص والعقل في الصناعة النحوية حدين متكاملين ومتساندين، ومن ثم يبدو أن هناك تلازما بين النص والعقل في المنظومة المعرفية العربية الإسلامية.

إن العناية بالنظام المعرفي ستمكن من فهم طرق تشكل الفكر النحوي ومساره، وخصوصا في بعده الأصولي، فلا شك أن الخطاب النحوي عرف سيرورة معرفية أكسبته هوية خاصة، وإن انتمى إلى النموذج المعرفي نفسه، فمفاهيمه وطرق التحليل والتعريف والتصنيف قد تطورت من زمن إلى آخر، وهذا ما يفرض إعادة قراءة الخطاب النحوي. ومع ذلك تكمن معضلة الأعمال التي أنجزت حول النحو العربي أنها تلجأ إلى المنهج الخارجي؛ باستثمارها مفاهيم تعد قواعد توجيهية سابقة على كل توجه معرفي نوعي[1]، ومن ثم فمرحلة الوضع والتأسيس وجمع اللغة والعمليات التي رافقتها تختلف عن مرحلة التنظير ووضع الأصول العامة وأصول النحو المنهجية.

ولفهم اللغويات العربية وأسسها المعرفية وأصولها النظرية، فإن الأمر يقتضي الخروج من هذا الأفق القرائي، والاقتراب من مستوى الفعل النحوي والأساس التنظيمي الشكلي، والاهتمام بالمفاهيم المحورية التي تكشف عن عقلانية النحو العربي[2]. فلا مندوحة من النظر في الخطاب النحوي وتفكيك ثوابته ومستوياته من الداخل، ولا مفر من الرؤية الاتصالية التي تنبني على النظر في منطق النص النحوي الداخلي، والنظر في كيفية جمع النحاة بين نظائر اللغة وأشباهها، فقد كانوا يلحقون ظواهر اللغة ببعضها البعض؛ للخروج بأحكام وقواعد ضابطة لها، فتبينوا الأصول والفروع في المفردات وفي التراكيب، كما تبينوا أنماط التراكيب وصورها بناء على جملة من المعايير والضوابط النصية والعقلية.

إن المقاربة الإبستمولوجية الفعالة للنحو العربي، تتجسد معالمها في التركيز على المستويات الداخلية التي تهتم بشكل تنظيم النحو وتوزيعه على الأبواب النحوية، فخلف هذا التشكل أصول ومقدمات معرفية ومنهجية، "وحين نتجه بالتحليل شطر مستويات التحليل في اللغويات القديمة ينكشف فساد بعض التأويلات، فمستوى التحليل الإبستمولوجي لا تنقدح مبادئه في كتب أصول النحو القديمة، وإنما في كتابات النحويين أنفسهم، وفي استدلالاتهم"[3].

وفي نظري فإن التركيز على هذه المستويات، سيكشف لا محالة القواعد الكلية والأسس العامة التي تنظم مادة النحو العربي، وستتضح المبادئ المتحكمة في الأصول والفروع، وتظهر العلل والمقاصد التي

---

2. إسماعيلي علوي حافظ والملاخ امحمد، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ص 42.
3. ينظر المرجع نفسه، ص 42-43.
1. المرجع نفسه، ص 49.

توجه السلوك اللغوي للمتكلم العربي المثالي، وهذه المبادئ بلا شك قد وجهت عمل النحويين في عمليات التحليل والتقعيد والتنظير.

2. مرجعية "الأشباه والنظائر في النحو" الأصولية

أ. دور السيوطي في البناء المعرفي المأصول

عاش السيوطي في عصر اتسم بكثرة النزاعات والفتن الداخلية في عهد المماليك. وعلى الرغم من هذا، فقد عرف عصر السيوطي نشاطا علميا مزدهرا، ضم نخبة من العلماء المبرزين في مختلف الحقول العلمية، وهو ما حفز السيوطي إلى الاهتمام بالمعرفة والعلم والنهل من منابعهما. وقد كانت له رغبة جامحة في التفوق على أقرانه والتصدر في مشهد الحياة؛ خصوصا وأن أسرته كانت من أهل العلم والصلاح، لها صلة وثيقة بالصلحاء والأولياء وأهل العلم.

وتميز عصر السيوطي بسعي علمائه إلى حفظ التراث؛ فكان هذا العصر حلقة وصل بين الماضي والحاضر. واتخذت هذه المحافظة كما تجلت في كتابات السيوطي في كثرة التصانيف؛ وخصوصا في مجالات اللغة والنحو والعلوم القرآنية والنصية بصفة عامة.

ويشير حسن خميس الملخ إلى أن ما يميز السيوطي بالإضافة إلى موسوعيته، أنه "يمثل دليلا من أدلة التحول في منهج البحث العلمي عند العلماء العرب والمسلمين من منهج العقل والدراية إلى منهج النقل والرواية، فيصبح التأليف جمعا واستقصاء وتنبيها وشرحا لغامض وزيادة على ناقص، وتدقيقا في عبارة وتوجيها لاصطلاح ودلالة"[1]. وتبرز هذه الخاصية في قول السيوطي على سبيل التمثيل: "وقد جمعت كتابا مسندا فيه تفاسير النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف وقد تم ولله الحمد في أربع مجلدات وسميته (ترجمان القرآن)"[2]. وظهر ذلك جليا في مصنفه المزهر في علوم اللغة، وقد بدا واضحا تأثره بالمنهجية المعرفية الحديثية. وقد لازم الإمام السيوطي في الحديث والعربية الشيخ العلامة تقي الدين الشمني الحنفي أربع سنين الذي شهد له بالتفوق والنبوغ، وأخذ علوم التفسير والأصول والعربية والمعاني وغيرها من الفنون محيي الدين الكافيجي الذي

---

2. السيوطي جلال الدين، تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب، تحقيق حسن خميس الملخ وسهى نعجة، عالم الكتب الحديث وجدار للكتاب العالمي، الأردن، ط2، 2008، ج1، ص 12.
3. السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمود مرسي عبد الحميد ومحمد عوض هيكل، دار السلام، القاهرة، ط3، 2013، ج2، ص 890.

لازمه أربع عشرة سنة، وأجازه في ذلك، وكان يحضر مجلس الشيخ سيف الدين الحنفي؛ لتلقي دروس في الكشاف والتوضيح وحاشيته عليه وتلخيص المفتاح والعضد[1].

لقد تعاطى السيوطي الفتوى وإملاء الحديث، ورزق التبحر في سبعة علوم هي: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع؛ على طريقة العرب والبلغاء[2]. ويعترف السيوطي باطلاعه الشامل في مجال الفقه، هذا الاطلاع الذي لم يصل إليه حتى شيوخه، وإن كان شيخه أوسع نظرا منه[3]. ودون هذه العلوم السبعة في المعرفة نجد أصول الفقه، والجدل، والتصريف، ودونها الإنشاء والفرائض، ودونها القراءات ودونها الطب. وعلى الرغم من سعة معارفه فقد كان يشكو من صعوبة علمي: الحساب والمنطق.

ولم يكن السيوطي ذا ثقافة واحدة، بل كان بحق عالما موسوعيا؛ بحيث تعددت الروافد والمناهل العلمية التي أثرت في كتاباته اللغوية والنحوية وفي أسلوب تفكيره، وتعد الموسوعية في التصنيف من سمات المحافظة على التراث وأداة لبيان مضامينه، فلم يتخصص السيوطي في علم من العلوم، بل صنف في عدة علوم. وتميز العصر الذي عاش فيه أيضا بانتشار التعليم، ولهذه الغاية أنشأ المماليك المدارس والمعاهد، ولهذا برز علماء أجلاء في تعليم اللغة والنحو، ولهذا اتسم التصنيف النحوي في هذا العصر بوضع المختصرات والشروحات.

وتتجلى موسوعية السيوطي كما ترجم ذلك لنفسه، في كثرة التصانيف التي وضعها؛ فقد ألف في فن التفسير وتعلقاته والقراءات كتبا عدة، كالإتقان في علوم القرآن، والدر المنثور في التفسير المأثور، ومعترك الأقران[4]. أما في فن الحديث وتعلقاته، فقد ألف كشف المغطى في شرح الموطأ، وإسعاف المبطا برجال الموطا، والتوشيح على الجامع الصحيح[5]. أما في مجال الفقه وتعلقاته؛ فقد ألف الأزهار الغضة في حواشي الروضة، وشرح التنبيه، والأشباه والنظائر، واللوامع والبوارق في الجوامع والفوارق، إلى غير

---

1. ينظر السيوطي جلال الدين، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1967، ج1، ص 337-338.
2. السيوطي جلال الدين، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، ص 338.
3. المصدر نفسه، ج1، ص338.
4. المصدر نفسه، ج1، ص 339.
5. ينظر المصدر نفسه، ج1، ص 340-341.

ذلك من الكتب والمصنفات[1]. وقد أشرت آنفا إلى بعض مصنفاته في علم العربية وتعلقاته، كما صنف في فن الأصول والبيان والتصوف أيضا، وفي فن التاريخ والآداب[2].

وبما أن السيوطي كان يؤكد على أن أصول اللغة محمولة على أصول الشريعة، فقد كان لعلوم الشريعة ارتباط وثيق بعلم النحو واللغة، وكان لها حضور قوي في المصنفات التي وضعها الإمام السيوطي. وهذا يوضح قيمة الرافد الديني النقلي والنصي في تكوين ملكته في الصناعة النحوية التي تجلت في الرافد القرآني؛ فقد أولى السيوطي عناية خاصة بعلوم القرآن، وألف كتابا شاملا جامعا سماه الإتقان في علوم القرآن، إيمانا منه أن القرآن الكريم مفجر العلوم ومنبعها؛ فمنه يستنبط الفقيه الأحكام، وعليه يبني النحوي قواعده، وهو المرجع في معرفة الصواب من الخطأ، والهادي البلاغي إلى معرفة حسن النظام وتبين مسالك صوغ الكلام. وكان السيوطي يؤمن بأن العلم قد يؤخذ بالسماع والنصوص أو بالاستنباط والقياس، وقد ينتزع من علم آخر[3]، وهنا يظهر الوعي بقيمة التكامل المعرفي داخل النموذج المعرفي الإسلامي.

وتتلخص فلسفة العلم عند السيوطي في إيمانه أن العلم سلسلة متواصلة الحلقات وعمل تراكمي، فهو يرى أن العالم قد يسبق إلى استخراج حقيقة علمية لم يسبقه أحد إليها، أو يزيد في مهمات لم يستوف الكلام عليها؛ فالعلم في تصوره بناء تراكمي مستمر، "ولهذا يفتح لعالم بعد آخر من الأبواب ما لم يتطرق إليه من المتقدمين الأسباب"[4]، وهنا تبرز قيمة التفاعل مع التراث، فهي حتمية ضرورية، يصعب على الباحث التنكر لهذه الحقيقة، وحتى إذا انشغل عنه، فإنه سينشغل بتراث غيره كما يذهب إلى ذلك طه عبد الرحمان[5].

وكما تأثر السيوطي بعلوم القرآن، ووظف بعضا من آلياتها في الصناعة النحوية، تأثر كذلك بعلم أصول الفقه، فقد ظهر تأثيره في التعريفات وفي المصطلحات، وفي تبني الهيكل الفني والصوري لأصول الفقه في بعض المؤلفات، وإن حاول السيوطي استحضار مقتضيات الصناعة النحوية. وقد بين منهجه في كتابه الاقتراح بقوله: "ورتبته على نحو ترتيب أصول الفقه في الأبواب والفصول والتراجم". واتباع منهج

---

1. المصدر نفسه، ج1، ص 342-343.
2. المصدر نفسه، ج1، ص 343-344.
3. السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1998، ص 58.
4. السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمود مرسي عبد الحميد ومحمد عوض هيكل، ج1، دار السلام، القاهرة، ط3، 2013، ص 16.
5. ينظر طه عبد الرحمان، حوارات من أجل المستقبل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2011، ص 16.

الفقهاء واضح في كتاب الأشباه والنظائر، وهو كتاب يشبه كتاب القاضي تاج الدين السبكي في الفقه، فإنه جامع لأكثر الأقسام، ويشبه كتاب الزركشي من حيث إن قواعده مرتبة على حروف المعجم، ويشارك كتاب السبكي في كونه يضم كثيرا من الفنون التي حددها في سبعة (فن القواعد والأصول، فن الضوابط والاستثناءات، فن بناء المسائل بعضها على بعض، فن الجمع والفرق، فن الألغاز والأحاجي والمطارحات والممتحنات، فن المناظرات والمجالسات والمذاكرات والمراجعات والمحاورات والفتاوى والواقعات والمراسلات والمكاتبات، فن الأفراد والغرائب).

ويظهر أثر علم الحديث حينما وظف السيوطي المحمول المعرفي من أصول هذا العلم في علم أصول النحو، من خلال تقسيم النص المسموع مثلا إلى متواتر وآحاد، ومن خلال التحديدات المفهومية التي جاءت في أغلبها مطابقة لما جاء في علم الحديث، ويظهر التأثر بعلم الحديث من خلال وضع شروط نقل اللغة والإشارة إلى طرق الأخذ والتحمل. ولم يخف السيوطي هذا التأثر، بل نص عليه في مقدمة كتابه: "هذا علم شريف ابتكرت ترتيبه، واخترعت تنويعه وتبويبه؛ وذلك في علوم العربية وأنواعها، وشروط أدائها وسماعها، حاكيت فيه علوم الحديث في التقاسيم والأنواع"[1].

وفي العموم؛ حاول السيوطي خدمة العربية بتوظيف أدوات العلوم المجاورة، وفنون التأليف في العلوم الإسلامية وآلياتها الاستدلالية التي تنتمي إلى مجال التداول المعرفي الإسلامي، وما كان ليتأتى له ذلك لولا تميزه بعقلية موسوعية. ومن مظاهر حفظ التراث كما اتضح لنا:

- كثرة التصانيف، وقد أشرت إلى أن السيوطي ألف في مجموعة من الحقول المعرفية؛

- موسوعية التصنيف، فلم يتخصص السيوطي في علم من العلوم، فقد خاض في بحر كل علم، وإن تفاوتت معارفه من علم إلى آخر. ومن سمات التصنيف عند السيوطي أنه عمد أحيانا إلى اختصار مصنفاته طلبا لتيسير القواعد وخوفهم على التراث من الضياع كما اتضح من خلال كتاب جمع الجوامع، ولم يكن هذا مقتصرا على علوم العربية فقط، بل امتد إلى باقي العلوم الإسلامية.

وتميز عصر السيوطي أيضا، بالميل إلى شرح المصنفات والتعليق عليها، وقد شرح السيوطي مصنفه جمع الجوامع بشرح سماه همع الهوامع. ومن سمات التأليف عند السيوطي القدرة على الجمع والتصنيف والترتيب والإفادة ممن سبقوه في التأليف والاعتراف بفضلهم، يقول في مقدمة همع الهوامع: "وأستعينك في إكمال ما قصدت إليه من تأليف مختصر في العربية، جامع لما في الجوامع من المسائل

---

1. السيوطي جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج1، شرح وتعليق، محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد جاد المولى بك وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط 1، 2011، ص 14.

والخلاف، حاو لوجازة اللفظ وحسن التأليف، محيط بخلاصة كتابي التسهيل والارتشاف"[1]. كما نقل السيوطي نصوصا وأقوالا كاملة ومسائل نحوية عن سابقيه، كما تجلى ذلك في كتاب الأشباه والنظائر، فقد نقل عن الزجاجي وابن جني وأبي حيان الأندلسي وابن هشام الأنصاري. ولهذا تميز عصر السيوطي بالجمع والتحصيل والترتيب، ويبدو أن الهاجس في ذلك الخوف من ضياع التراث ونسيانه، فجمع العلماء مضامينه ومادته بغزارة وتعمق، وهذا ما جعل مصنفاتهم ومنهم السيوطي تعتني بذكر الخلافات النحوية والآراء النحوية المتشعبة، كما يظهر في مصنف الأشباه والنظائر وهمع الهوامع؛ فالسيوطي امتاز نظره النحوي بالقدرة على استقصاء حيثيات المسألة وجزئياتها، وهو ما جعله يكثر من الشواهد والأمثلة لبيانها خصوصا في كتب الشروح.

لقد اهتم السيوطي بحفظ التراث اللغوي والنحوي العربي؛ بنقله وجمعه بالانفتاح على مختلف العلوم الإسلامية والعربية، وانعكس ذلك على مصنفاته اللغوية والنحوية، ولهذا تجد السيوطي مثلا يضع مصنفين بعنوان واحد في علمين مختلفين كالأشباه والنظائر في الفقه والأشباه والنظائر في النحو، وجمع الجوامع في الحديث وجمع الجوامع في النحو، كما أشار في مقدمة كتابه المزهر أنه حاكى علوم الحديث في التقسيم وذكر الأنواع. ويحسب له أنه اجتهد في معالجة المادة النحوية من حيث الترتيب واستقصاء آراء سابقيه ومعاصريه، والاستشهاد عليها والأمانة في النقل وترجيح بعض الآراء على أخرى، وتجد في مقدمات كتب السيوطي الإشارة إلى قيمة التصنيف والترتيب والتقسيم، وينسب إلى نفسه الفضل في اختراع ذلك وأن أحدا لم يسبقه إلى ذلك، وكان السيوطي في كل مقدمة يرسم خطة في مدارسة الأبواب والفنون.

ب. النحو العربي والنظر الإبستمولوجي المعاصر

يظهر من خلال ما تطرقت إليه أن العقلانية اللغوية العربية هي عقلانية عربية أصيلة انبثقت من اجتهاد المسلمين ومن رؤيتهم للكون والحياة والوجود، ومن تحديهم لباقي الأمم ولأسلوب تفكيرها ونظرها العقلي في الواقع والطبيعة. هذه العقلانية التي نحتت مفاهيمها وأنتجت آلياتها الاستدلالية والتحليلية وأدواتها الواصفة من العلوم التي أبدعها العقل الإسلامي، التي تمحورت حول النص الذي ظل "يمدنا بكل شيء أي يمكن أن نستخرج منه كل ما نريد في حياتنا الدينية والدنيوية ولذلك استفرغ المفكرون لغويون وغير لغويين كل طاقتهم في استثمار النص وخاصة النص الديني الذي قامت عليه عملية إنتاج المعرفة"[2].

---

1. السيوطي جلال الدين، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، ج1، دار الكتب العلمية لبنان بيروت، ط1، 1998، ص17-18.
2. عشير عبد السلام، تطور التفكير اللغوي من النحو إلى اللسانيات إلى التواصل، ص 45.

وفي قراءته المعرفية للمرجعيات الحديثة التي نظرت في الخطاب النحوي العربي، وحاولت تفكيك أسسه وأصوله، يرى إدريس مقبول أن هناك ثلاث مرجعيات[1]:

المذهب الأول سماه "الإبستمولوجيا المفصولة" التي ربطت النحو العربي بعوامل خارجية، وتنضوي تحتها ثلاثة اعتقادات: الاعتقاد الأول يقول بتأثر النحو العربي بالفلسفة اليونانية، وقاد هذا الاتجاه بعض المستشرقين؛ كماركس وغويدي، واقتفى أثرهما بعض الدارسين العرب؛ كإبراهيم مدكور وإبراهيم أنيس والمهدي المخزومي، وقد رد مجموعة من الباحثين على هاته الدعوى التي تخالف المعطيات التاريخية والواقعية وتقوم على التخمين والافتراض فقط[2].

أما الاعتقاد الثاني فيرى أن النحو العربي تأثر بالمنطق اليوناني، على الرغم من أن الفكر الإسلامي في عمومه قد اتخذ موقفا حذرا من المقولات المنطقية لوجود اختلاف بين في المنطلقات وجوهر الصناعتين كما وضح ذلك الزجاجي في كتاب الإيضاح في علل النحو، وكما تجلى في مناظرة أبي سعيد السيرافي لمتى بن يونس.

أما الاعتقاد الثالث فهو لأحمد العلوي الذي يرد فيه النظر النحوي إلى الفلكية البابلية، فهو "يرى أن النحوي قاس نظام الكائنات اللغوية على نظام المخلوقات الطبيعية، لاعتقاده أن الحكمة الالهية المتجلية في الطبيعة من طينة الحكمة الإلهية المتجلية في اللغة"[3]، فالوجود اللغوي لا شك يضارع الوجود الطبيعي ويماثله، ولكن أحمد العلوي يشير في مناسبات عدة إلى تأثر الفكر النحوي بعلم الكلام أيضا، ويجعله مقابلا لعلم اللغة العام.

وبخصوص المذهب الثاني فهو مذهب الإبستمولوجيا الموصولة الذي يذهب إلى أن النحو العربي قد أخذ طرق تفكيره ومناهج نظره من علوم عربية وإسلامية متنوعة، فقد استفاد من علم الكلام ومن الفقه وأصوله وتأثر بعلم الحديث وقد تجلى هذا واضحا عند ابن جني وابن الأنباري والإمام السيوطي[4].

أما المذهب الثالث فسماه الباحث إدريس مقبول الإبستمولوجيا المأصولة، وهو المذهب الذي ينتصر إليه؛ حيث يرى تأثر نشوء علم النحو بعلم الكلام، وهو ما ظهر جليا في كتاب سيبويه. وعلم الكلام في

---

1. مقبول إدريس، سيبويه معتزليا، حفريات في ميتافيزقيا النحو العربي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة قطر، ط1، 2015، ص 24، بتصرف. وانظر كذلك إدريس مقبول، الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، عالم الكتب الحديث، جدار الكتاب العالمي، ط1، 2006، خصوصا الفصل الأول من الباب الأول.
2. مقبول إدريس، سيبويه معتزليا، حفريات في ميتافيزقيا النحو، ص 26، بتصرف.
3. المرجع نفسه، ص 30، بتصرف.
4. البوحسيني رفيق، معالم نظرية للفكر اللغوي العربي، مقاربة إبستمولوجية المزهر نموذجا، افريقيا الشرق، ط1، 2013، ص 50- 51- 52، بتصرف.

نظر الباحث قد تقدم على سائر العلوم الإسلامية، وإرجاع العلوم كلها ومنها النحو إلى الفلسفة الأولى، أي علم الكلام قد قال به ابن سينا والفارابي[1].

وتبني هذا الرأي يرجع كما يرى الباحث إلى أن هناك قدرا مشتركا من أوجه التشاكل والتقاطع بين النحو العربي وعلم الكلام، وقد لخصها في أربعة نقط نعرضها على الشكل التالي:

- **الصناعية:** حيث أصبح النحو معرفة منضبطة بقواعد تحصل بالاستقراء، وجاوز هذا الحد بالاستدلال والنظر العقلي، كما تحصل علم الكلام بالنظر والاستدلال أيضا.
- **النظرية:** النحو وعلم الكلام من العلوم النظرية لقيامها على النظر والاستدلال والبحث، ولذلك اختلفت الآراء حول مسائلها وقضاياها.
- **الآلية:** كل من علم النحو وعلم الكلام يتوسل بهما إلى فهم غيرهما من العلوم والخطابات الأخرى، فهما وسيلتان للتفسير والفقه وفهم الحديث وتحليل الخطاب.
- **البحث في الوجود الأنطولوجي:** علم النحو وعلم الكلام يجمعهما منطلق البحث والنظر في متعلقات الوجود سواء أكان وجودا طبيعيا أم لغويا، ولذلك تأثر علم النحو بمفاهيم وقضايا علم الكلام. وبما أن علم الكلام لا يمكن إخراجه عن النظام المعرفي الإسلامي، وإن قرئ النحو بخلفية كلامية، فهو يندرج ضمن الرؤية الاتصالية، وقد قام عمل سيبويه بالأساس على النظر في المنطق الداخلي للغة العربية، فكانت أصوله المعرفية والنظرية نابعة من كلام العرب ومن معهود خطابهم[2].

وإذا كان الباحث يقر في أطروحته بأن الأثر الكلامي المعتزلي كان واضحا وحاسما في أحد أنفس النصوص اللغوية المؤسسة التي وصلتنا في ثقافتنا العربية الإسلامية وهو كتاب سيبويه، فالأمر قد يختلف في نظرنا مع مؤلفات الإمام جلال الدين السيوطي اللغوية، الذي يظهر أنه كان متأثرا في معرفته ونظره اللغويين بالعلوم الشرعية كافة، وعلى وجه الخصوص بعلمي الحديث وعلم أصول الفقه. وقد صرح بذلك بنصين لا غبار عليهما، يقول السيوطي في مقدمة كتاب المزهر: "هذا علم شريف ابتكرت ترتيبه، واخترعت تنويعه وتبويبه؛ وذلك في علوم اللغة وأنواعها، وشروط أدائها وسماعها، حاكيت به علوم الحديث في التقاسيم والأنواع، وأتيت فيه بعجائب وغرائب حسنة الإبداع"[3]. ويقول في مقدمة كتاب الأشباه والنظائر: "واعلم أن السبب الحامل لي على تأليف الكتاب الأول أني قصدت أن أسلك بالعربية سبيل الفقه

---

1. مقبول إدريس، سيبويه معتزليا، ص 46.
2. راجع إدريس مقبول، الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، وسيبويه معتزليا.
3. السيوطي جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج 1، ص 14.

فيما صنفه المتأخرون فيه وألفوه من كتب الأشباه والنظائر"[1]، ومن ثم فقد تقوم نظره النحوي بأصول النظام المعرفي العربي العقدية والفقهية واللغوية، فكانت معالم أطرت فكره ومنهجه في البناء المعرفي.

ويبدو كعادته المألوفة أن السيوطي غالبا ما يشير إلى سبق التأليف في هذه العلوم ومحاولته التجديد في الدرس اللغوي، وجعله ينفتح على فنون وعلوم أخرى، فهناك إصرار منه على ضرورة التجديد في المنهج والتبويب، يقول السيوطي: "وألفت (كتاب الأشباه والنظائر) مرتبا على أسلوب آخر يعرف من مراجعته، وهذا الكتاب الذي شرعنا في تجديده في العربية يشبه كتاب القاضي تاج الدين الذي في الفقه فإنه جامع لأكثر الأقسام"[2]، فالسيوطي من خلال هذا الإعلان يضع ميثاقا بينه وبين القارئ منذ البداية، فهو يسير في تأليفه على نمط التأليف الفقهي ومنواله، ويستحضر تقاطعات كل من علم أصول الفقه وعلم النحو، وهذا يدفعنا إلى محاولة الاقتراب من معالم الفكر النحوي الأصولي وسماته في تقاطعاته مع أصول الفقه وآلياته.

أ. تقاطعات النظر النحوي والفكر الأصولي عند السيوطي[3]

يتميز الفكر النحوي والأصولي بشكل عام عن الفكر الفلسفي والفكر الكلامي بالخصائص التالية، وإن اختلف الفكران في بعض السمات حسب خصوصيات كل صناعة على حدة.

العقل: فـالنظر النحوي يجنح نحو التحليل والنظر العقلي في القضايا المعروضة عليه، وتقليب النظر بغية فهم خصائص الظواهر المدروسة وعقلها، في انسجام تام مع النقل، "لأن النحو معقول من منقول كما أن الفقه معقول من منقول"[4]. وليست القضية في العقل والنقل كما يقول حسن حنفي أيهما أصل، بل كلاهما أساس ومؤسس في آن واحد، يتأسس النقل على العقل تجنبا لاشتباه اللغة، ويتأسس العقل على النقل لخاصة العقل إلى الحدس والتوجه نحو العمل والانتفاع، وضمان الصدق. فالنقل لا يمكن أن يكون حدا عائقا أمام العقل، بل يوجهه نحو العمل والشمول وضمان الصدق والموضوعية، والنحو العربي كما تشكل منذ نشأته يقوم على أساس الجدلية والتفاعل بين السماع والقياس.

التجربة: ويقصد بها المشاهدة والمعاينة والانتقال من الجزئيات إلى الكليات. وليس من الضروري أن يكون الاستقراء شاملا كما تقرر علميا، فالناظر يكتفي بالاستقراء الناقص المفضي إلى تبين الحكم.

---

1. السيوطي جلال الدين، الأشباه والنظائر في النحو، ج 1، ص 9.
2. المصدر نفسه، ج 1، ص 12.
3. لقد استلهمت أفكار هذا المطلب من كتابات حسن حنفي، خصوصا كتابه من النص إلى الواقع، الجزء الأول: تكوين النص، محاولة لإعادة بناء أصول الفقه، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2004، انظر المبحث الثاني من الفصل الأول المعنون بالسمات والمنهج.
4. السيوطي جلال الدين، الأشباه والنظائر في النحو، ج1، ص 12.

والمقصود بالتجربة في هذا الصدد ليس التجربة الطبيعية المتصلة بالمنهج العلمي، بل التجربة الإنسانية؛ فالنحو جاء ليجيب عن حاجة واقعية، جاء لتقويم الألسن، فشيوع اللحن، حتى عند الخلص، أوجب وضع أصول لضبط اللغة ووصفها وتفسيرها، وإن كان اللحن في نظر علي أبي المكارم قد شاع من قبل، كما يؤكد أن النحو جاء لحاجة حضارية سامية؛ جاء ليكون مدخلا لفهم النصوص وتحليلها وفهم الخطاب الشرعي، هذا الخطاب الذي يجيب عن أسئلة واقعية، فنشأة النحو هو حاجة اجتماعية فكرية لأمة بأسرها[1]، وهنا يمكن الحديث عن البعد التداولي للنموذج النحوي، ويمكن القول إن مختلف ضروب العلوم الإسلامية قد تأثرت نشأة وتطورا بالعقيدة الإسلامية وبرؤيتها الكونية، ولهذا تجد النحاة والسيوطي على وجه الخصوص قد أوْدَعَ كتبه ومصنفاته مباحثَ علوم عدة.

المنهجية: المقصود بذلك احترام خطوات البحث العلمي، كالبدء مثلا بالجمع والتصنيف، ثم الانتقال إلى التفسير والتعميم والتقويم. والمنهج الإسلامي لم يقدم المادة فقط، بل اهتم بالجوانب الشكلية، والاهتمام بنقد المتن والسند[2]. كما أن ترتيب الأبواب النحوية لم يكن ترتيبا عشوائيا، بل خضع لنسقية العلم ونظاميته، ولخطة وتصور نظري قبلي، ولنظرية الأصول والفروع، كما يتضح من تأليف السيوطي كتابه الأشباه والنظائر؛ فقد بدأ الكتاب بفن القواعد والأصول العامة، ثم انتقل إلى الضوابط والاستثناءات والتقسيمات، ثم انتقل إلى فن بناء المسائل بعضها على بعض، ثم فن الجمع والفرق، وهكذا[3]؛ فالبناء النحوي قام على مركزية الاستقراء وحتمية القياس، والاستعانة بالتعليل وبالتقدير والتأويل في حال وجود تعارض بين القواعد والظواهر اللغوية الاستعمالية، وتلك سمة ساعدت على تأسيس منهج إسلامي عربي مأصول من داخل الثقافة الإسلامية، وليس من خارجها.

المنطقية: حيث إن لكل مشكلة حلا، ولكل اعتراض ردا بدليل وبعرض الحجج والأدلة[4]. ويتأسس الفكر النحوي على تراكمية المعرفة وعلى الشرط التاريخي والاتساق؛ حيث الاتساق في النقل، والاتساق بين العقل والنقل، وبين الفكر والواقع، وبين النظرة الفعلية للغة ومحاولة بناء نظامها المثالي، كما أن التناول التفصيلي للقضايا النحوية تطلب القدرة على التجريد والقدرة على التقعيد، وهو ما يتطلب التزام

---

1. أبو المكارم علي، مدخل إلى تاريخ النحو وقضايا ونصوص نحوية، دار غريب للنشر والطباعة والتوزيع، ط1، 2007، ص 40.
2. أبو المكارم علي، مدخل إلى تاريخ النحو، ص 46.
3. السيوطي جلال الدين، الأشباه والنظائر في النحو، ج1، ص 12-13.
4. يجسده في كتاب الأشباه والنظائر في النحو فن المناظرات والمجالسات والمذاكرات والمراجعات والمحاورات والفتاوى والواقعات والمراسلات والمكاتبات، وانظر الوراق، علل النحو، عندما فسر سبب تقسيم الكلام إلى ثلاثة أقسام، ص 137.

منهج فكري يعتمد كلية النظرة لإصدار الأحكام والإحاطة الدقيقة بالجزئيات[1]. وتتجلى المنطقية في إبرام الأحكام بالاحتكام إلى أصل المعنى والإقبال على الألفاظ والحركات، وأكد علماء العربية على ضرورة مناسبة الإعراب للمعنى.

الذاتية: مبدأ يخضع للتفكير البشري الذي قد يعترضه الخلل والنقص، وبالتالي وجب إعادة النظر في المنجز وتقويمه لتجاوز القوادح والنقائص. وفي هذا الصدد وجب التمييز بين النحو كقواعد وأحكام وعلل تضبط الظاهرة اللغوية، والفكر النحوي الذي هو اجتهاد بشري يقارب الظاهرة اللغوية، وليس فكرا معصوما، وهذا ما نجده عند علماء العربية الأوائل الذين أعادوا قراءة كتاب سيبويه المؤسس للمعرفة النحوية، وأضافوا إليه بشروحاتهم وتعليقاتهم وتصحيحاتهم واعتراضاتهم.

الوضعية: قواعد النحو موضوعة في الواقع والتاريخ، لها أسس وأصول تنضبط لها، تقوم في وضع اجتماعي وفي واقع استعمالي، وليست قواعد صورية بعيدة عن المجال التداولي العربي؛ فقد وضعت لحاجات دينية واجتماعية وحضارية، وهي منبثقة من معهود كلام العرب ومن سننها في التخاطب، وليست مقولات تجريدية بعيدة عن منطق العربية؛ فالنحو منطق منسلخ من اللغة العربية، يقول السيوطي نقلا عن الزجاجي في أماليه: "حدثنا أبو جعفر محمد بن رستم الطبري، قال: حدثنا أبو حاتم السجستاني، حدثني يعقوب ابن إسحاق الحضرمي، حدثنا سعيد بن سالم الباهلي، حدثنا أبي عن جدي عن أبي الأسود الدؤلي قال: دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فرأيته مطرقا متفكرا، فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال إني سمعت ببلدكم هذا لحنا فأردت أن أصنع كتابا في أصول العربية، فقلت: إن فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة، ثم أتيته بعد ثلاث فألقى إلي صحيفة فيها: ـ بسم الله الرحمان الرحيم ـ الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل (...) واعلم يا أبا الأسود: أن الأشياء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، وإنما تتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر"[2]. ولا ننسى كذلك أن النحو نشأ بهدف تفسير الخطاب القرآني وفهمه وإفهامه كما أشرت قبلا.

العملية: الكتب النحوية ألفت بداعي العمل والتعليم وتقويم الألسن أيضا وفهم الخطاب وتحليله، وجاءت بداعي إلحاق غير العربي بالعربي الفصيح، ولا ننفي الداعي العلمي فهو الأساس، فكان النحو: "هو انتحاء سمت كلام العرب، في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية، والجمع، والتحقير، والتكسير والإضافة، والنسب، والتركيب، وغير ذلك؛ ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق

---

1. أبو المكارم علي، مدخل إلى تاريخ النحو، ص 73.
2. السيوطي جلال الدين، الأشباه والنظائر في النحو، ج 1، ص-ص 13-14.

بها وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها رد بها إليها"[1]. وعن طريق النحو يتم ربط الأجيال بروح الحضارة الإسلامية وفكرها، وقد حتم هذا المنهج نقل الأمم الأخرى غير العربية إلى القرآن باعتباره نصا عربيا خالصا، ونقل تلك الأمم إلى ثقافة القرآن لن يتأتى إلا بتناول هذه اللغة بالتقعيد والدراسة لتيسير تعليمها لتلك الأمم، كما يقتضي ذلك توحيد النص القرآني الذي تمّ على يد الخليفة عثمان بن عفان، وهي خطوة فتحت باب الدراسات النحوية التي استقرت بعد الفتوحات الإسلامية. ولهذا لجأ علماء النحو إلى تأليف كتب علمية وأخرى تعليمية.

العلمية: لقد توفرت مجموعة من الخصائص والمقومات التي جعلت من النحو علما مضبوطا، يبتعد عن الأحكام الانطباعية والهوى والخرافة كما ذهب إلى ذلك الأستاذ تمام حسان؛ فقد أصبح ملكة صناعية تحصلت بالتمرن وإعمال النظر، فتوافرت له مجموعة من الخصائص كالموضوعية المقترنة بالاستقراء الناقص وضبط القواعد من خلال ما تنطق به العرب، والشمول؛ حيث حملت الظواهر غير المنقولة على المنقولة بالقياس، ومن ثم استخلصت الثوابت والأصول العامة، واتسم النحو بخاصية التماسك التي تعكس عدم التناقض ودقة التصنيف من خلال ضبط العلاقات المتشابكة التي تربط الظواهر فيما بينها، أما خاصية الاقتصاد فتجلت في الانتقال من مستوى الأفراد إلى مستوى الأصناف وفي الطابع التقعيدي[2].

الأصالة: وتعني الإبداع الذاتي، إذ يعتمد المصدر الداخلي، ولا يخضع للتأثيرات والتجارب الخارجية، وإن التقى معها وشاركها في بعض الأوجه والمنطلقات، فذلك بحكم الطبيعة العقلية الإنسانية، وبحكم وحدة المعرفة الإنسانية وآلياتها الاستدلالية، فالنحو العربي قد نشأ لدواع حضارية بالأساس، وقد أسس العرب بنيانهم الثقافي على النظر العقلي في النصوص؛ خصوصا القرآن الكريم.

خاتمة

وخلاصة القول إن النحاة العرب عامة والسيوطي على وجه الخصوص؛ إذا استحضرنا المقاربة المعرفية التي تأخذ في الحسبان النظر في المضامين والنظر في الآليات المنتجة؛ قد انطلقوا في بناء المعرفة النحوية من مقدمات معرفية ونظرية خاصة، تتمحور حول مجالين اثنين والموازنة بينها؛ مجال المعطى الواقعي أو النصي، ومجال النظر العقلي. ولاشك أن هذه المقدمات قد تأثرت كل التأثر بالنظام الثقافي السائد وبالنموذج المعرفي المؤطر؛ ولذلك تجد النظر النحوي نظرا مأصولا مؤسسا على فحص النصوص الفصيحة واستقرائها، ثم إخضاعها للمساءلة عن طريق إعمال آليات الفهم والتفسير والتعليل وجمع الأشباه والنظائر والنظر في الأصل والفرع.

---

1. ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق الشربيني شريدة، ج1، دار الحديث القاهرة، ط1، 2007، ص78.
2. ينظر تمام حسان، الأصول، دراسة إبيستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، دار الثقافة الدار البيضاء، ط1، 1991، ص: 64-65-66.

لقد انبثق النظر النحوي من صميم اللغة ومن تتبع نظامها الداخلي وتبين منطق اشتغالها، فكان نسقا علميا مجاورا لباقي العلوم اللغوية والشرعية ومتفاعلا ومتداخلا معها، ومتأثرا بمساطرها البنائية والاستدلالية، وقد بينا في هذه الورقة العلمية كيف تأثر العالم الإمام السيوطي بالثقافة النقلية الشرعية التي أسهمت في تكوين ملكته اللغوية والنحوية إسهاما كبيرا، لكن دون أن تفقد هذه الملكة هويتها الخاصة والصناعية التي تجلت في الموضوعية والشمول والاقتصاد والتماسك.

وهكذا كان النظر النحوي من خلال المقاربة المعرفية التي تتوسل ببعض المفاهيم النظرية كالتداخل والمساطر الاستدلالية والنظام المعرفي نظرا عقليا استنباطيا واستقرائيا في الوقت نفسه، ونموذجا مصاغا بحكمة؛ رام الكشف عن حكمة العرب في كلامها، قام على أساس التفاعل المثمر بين النص اللغوي والعقل، والنظر في اللغة بوصفها وحدة كلية في وقوعها واستعمالها وفي تصورها نظريا ومعرفيا.

لائحة المصادر والمراجع

1. ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق الشربيني شريدة، ج1، دار الحديث القاهرة، ط1، 2007.
2. أبو المكارم علي، مدخل إلى تاريخ النحو وقضايا ونصوص نحوية، دار غريب للنشر والطباعة والتوزيع، ط1، 2007.
3. إسماعيلي علوي حافظ وامحمد الملاخ، قضايا ابستمولوجية في اللسانيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2009.
4. البوحسيني رفيق، معالم نظرية للفكر اللغوي العربي، مقاربة إبستمولوجية المزهر نموذجا، افريقيا الشرق، ط1، 2013.
5. بودرع عبد الرحمن، الخطاب النحوي ومنهج المعرفة، مجلة التأويل، الرابطة المحمدية للعلماء، العدد 2، يونيو 2015.
6. تمام حسان، الأصول، دراسة إبستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، دار الثقافة الدار البيضاء، ط1، 1991،
7. حنفي حسن، خصوصا كتابه من النص إلى الواقع، الجزء الأول: تكوين النص، محاولة لإعادة بناء أصول الفقه، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2004.
8. الخطيب محمد عبد الفتاح، ضوابط الفكر النحوي، دراسة تحليلية للأسس الكلية التي بنى عليها النحاة آراءهم، دار البصائر، القاهرة، ط1، 2007.
9. السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمود مرسي عبد الحميد ومحمد عوض هيكل، دار السلام، القاهرة، ط3، 2013.
10. السيوطي جلال الدين، الأشباه والنظائر في النحو، وضع حواشيه غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2011.
11. السيوطي جلال الدين، تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب، تحقيق حسن خميس الملخ وسهى نعجة، عالم الكتب الحديث وجدار للكتاب العالمي، الأردن، ط2، 2008.
12. السيوطي جلال الدين، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1967.
13. السيوطي جلال الدين، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، ج1، دار الكتب العلمية لبنان بيروت، ط1، 1998.
14. السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1998.
15. طه عبد الرحمان، حوارات من أجل المستقبل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2011.
16. طه عبد الرحمان، سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت- لبنان، ط1، 2015.

17. عشير عبد السلام، تطور التفكير اللغوي، من النحو إلى اللسانيات إلى التواصل، افريقيا الشرق، ط1، 2020.
18. مقبول إدريس، الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، عالم الكتب الحديث، جدار الكتاب العالمي، ط1، 2006.
19. مقبول إدريس، سيبويه معتزليا، حفريات في ميتافيزقيا النحو العربي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة قطر، ط1، 2015.

أَكَادِيمِيَّةُ اَلدِّرَاسَاتِ اَلْفِكْرِيَّةِ وَاَلتَّرْبَوِيَّةِ

contact@iesacademy.org

+212629-150200